تهكم الجاحظ(١)

— ١ —

« أساليب التهكم عند الافرنجة »

الى جنب هذا المذهب الذي ذهبه الجاحظ في الضحك والإضحاك مذهب آخر وهو التهكم ، ولعل بين المذهبين بعض الصلة وان كان كل منهما يختلف عن الآخر ، فصاحبها يحتاج الى شيء من خفة الروح ولكن هذه الخفة في الإضحاك بريئة من الهمز واللز وانما غايتها التنشيط والاستجمام ، اما في التهكم فقد يمازجها الخبث سواء أكان هذا الخبث ظاهراً أم كان باطناً .—

وقد كان التهكم من جملة أساليب سقراط في تقرير فلسفته فكان سقراط في تهكمه يرمي الى مناقضة خصمه فيسأله مسائل من باب تجاهل العارف فكان في بدء الامر يقرئ مذهب خصمه ثم يتلطف في سؤاله فلا يزال به من سؤال الى سؤال حتى يفضي به الى المناقضة في القول .—

أصل الأمر في التهكم ان نقول قولاً وانت تريد ضده ، فلما قال النظّام لابراهيم ابن هانيء : مابعد هذا الكلام كلام ، لم يقصد في هذه العبارة الا ضدّها ، ظاهر كلامه الاعتراف بعلم ابراهيم ولكن باطنه تعريض بجهله .—

لست في حاجة الى الكلام على خصائص التهكم فان هذا الكلام داخل في البديع وانما أقتصر في مثل هذا المقام على الاشارة الى ان التهكم اكثر مايستعمل في الخطاب فهو يغلب في الأحاديث حتى يكاد يكون لهجة ينفرد بها بعض الناس ، وقد يكون هذا التهكم

(١) سلسلة محاضرات الاستاذ السيد شفيق جبري احد اعضاء المجمع العلمي العربي التي شرع في المحاضرة بها في كلية الآداب في دمشق سنة ١٩٣١ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لباس فكرة فيها فرح وسرور او صيغة مزح روحاني ، او قالباً يفرغ فيه غضب او حقد او يأس او غير ذلك من هوائج النفس .

واذا أردنا ان نعرف رأي متهكم من حذاق المتهكين في هذا المذهب فلنسمع ما قاله أناتول فرانس :

« لا أزداد تفكيراً في حياة البشر الا ازددت اعتقاداً ان من الواجب علينا ان نجعل شهود هذه الحياة وقضائها التهكم والشفقة . —

التهكم والشفقة ناصحان صالحان . —

فالتهكم بابتسامه يحبب الينا الحياة ، والشفقة بدموعها تقدس هذه الحياة ، والتهكم الذي أرغب فيه ليس فيه شيء من القساوة ، انه لا يستهزيء بالحب والجمال ، فهو رقيق وفيه عطف ، فضحكه يكظم من الغيظ ، وهذا التهكم هو الذي يعلمنا ان نسخر من الأشرار والحمق ولولاه لأفضى بنا الضعف الى كراهيتهم . — »

ان هذا الكلام على وجازته يصور لنا قيمة التهكم ، فاذا اشتمل هذا المذهب على تحبيب الحياة وتقديسها ، واذا درّبنا على السخر بكل شرير وبكل أحمق بدلاً من ان نعبأ بهذا الشرير او بهذا الأحمق ، فما أعظم شأنه وما أهناً بال الذين يعرفون كيف يتصرفون فيه .

أفعلم الجاحظ ان يسخر من الاشرار والحمق ، وقبل ان ننظر في هذا كله لا أرى محذوراً في ذكر أغلاط من تهكم الافرنجة على سبيل المقايسة والموازنة . —

إمام المتهكين في فرنسة انما هو (ڤولتير) وهذا نمط من لسعه :

أنشأ جان جاك روسو رسالة موضوعها : اصل تفاوت الناس وقد كانت اكادمية ديجون اقترحت هذا الموضوع وطلبت التسابق فيه ولكن روسو لم يجل في هذا الميدان فلم يحرز قصب السباق الذي أحرزه سنة ١٧٤٩ في رسالة جعل فيها الآداب والعلوم مصدر الفساد . —

اتصلت هذه الرسالة بڤولتير فكتب اليه كتاباً يردّ فيه عليه وقد جاء في جملة هذا الكتاب ما يلي :

لم يجترم الجرائم الكبيرة الا مشاهير الجهلاء فان الذي يجعل من هذا العالم وادي دموع انما هو جشع الرجال الذي لا سبيل الى نقع غليله وعنجهيتهم التي لا سلطان عليها فان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الآداب تغذي الروح وتصلحها وتسليها وانها لتخدمك في الوقت الذي تعترض فيه عليها . —

ثم ختم رسالته بهذا الكلام :

أعلمني السيد . . . ان صحتك رديئة فينبغي لك ان تجودها بشميم هواء وطنك وان تتمتع بالحرية وان تشرب معي حليب بقرنا ، وترعى من عشبنا . — »

فالهمز يتخلل هذا التهكم المصقول الحواشي . —

فكأن فولتير يقول لروسو : ان جسمك معتل واعتلال الجسم يؤدي عادة الى اعتلال العقل فكأن فولتير يقول لروسو : ان عقلك لا يخلو من اعتلال . —

واليكم نمطاً آخر في التهكم وهو قول (لابرو ير) في المهوسين في حب الكتابة :

« يأخذ فلان ورقة وقلماً فجأة من دون ان يفكر في ذلك من قبل فيقول في نفسه : أريد ان أؤلف كتاباً على انه ليس له استعداد للكتابة ولكنه في حاجة الى خمسين (بستولاً) فأصيح به من غير جدوى : خذ المنشار يا (ديوسكور) وانشر ، او اضع دائرة دولاب فتحصل على اجرتك ولكنه لم يتعلم هذه الحرف كلها فأقول له : انسخ إذن او صحح في المطبعة ، لاتكتب ، بيد انه يريد ان يكتب وان يطبع كتاباته ، ولما كانت المطبعة لا يرسل اليها دفتر ابيض فانه يسوده بما يروقه فيكتب مثلاً : ان نهر السين يجري في باريز وان الاسبوع فيه سبعة ايام او ان السماء ماطرة ، ولما كان هذا الكلام لا يخالف الدين ولا الحكومة ولا يؤدي نشره بين العامة الا الى افساد الذوق وتعويد العامة الاشياء التي لاطعم لها بعرض على المراقبة ثم يطبع فيعاد طبعه مع مافي ذلك من العار على الأجيال وعلى كبار المؤلفين . — »

فهذا الكلام كله تهكم ، فان قول (لابرو ير) ان نهر السين يجري في باريز ، او ان هذا الكلام لايخالف الدين ولا الحكومة ، ان هذا القول كله انما هو همز ولمز . —

مالنا ولهذا كله فلنعجل الى استهزاء الجاحظ !

اذا كان التهكم على نحو ماقال (اناتول فرانس) يعلمنا ان نهزأ بالأشرار وبالحمق فقد علم هذا التهكم الجاحظ ان يهزأ بطائفة من الناس فيهم الحمق ، وقد اجتمعت له أسباب التهكم ومهدت له السبيل اليه .

أفلم تلده أمه مطبوعة على التهكم فان مجيئها بطبق الكراريس التي علتم امرها في

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كلامنا على حيانه استهزاء بولد يقضي ايامه في طلب العلم وهو عالة على امرأة تمونه !

أفلم يخرجه في الأدب والعلم رجال لا يضيعون فرص التهكم اذا سنحت هذه الفرص فعبارات ابي عبيدة والنظّام التي مرّت بنا في كلامنا على ثقافة الجاحظ أشباه: لاعليك فان مرفك لا يؤذي وامثال : مابعد هذاالكلام كلام ، انما هي عبارات يتخللها التهكم .—

ولقد ظهر ميل الجاحظ الى الاستهزاء من صغر امره وحداثة سنه واليكم القصة التي تناهت الينا وهي من آثار هذه الحداثة . قال الجاحظ[1] : « وبينما انا جالس يوماً في المسجد مع فتيان من المسجدبين مما يلي أبواب بني سليم وانا يومئذ حدث السن اذ أقبل ابوسيف الممرور وكان لا يؤذي احداً وكان كثير الظرف من قوم مسراق حتى وقف علينا ونحن نرى في وجهه اثر الجدّ ثم قال مجتهداً : والله الذي لا إله الاّ هو ان الخُراّ لحلو ثم و لله لذي لا إله الاّ هو يميناً ثانية يسألني الله عنها يوم القيامة ، فقلت له أشهد انك لا تأكله ولا تذوقه فمن أين علمت ذلك ؟ فان كنت علمت امراً فعلمنا مما علمك الله ، قال : رأيت الذبّان يسقط على النبيذ الحلو ولا يسقط على الحار و يقع على العسل ولا يقع على الخل وأراه على الخُرء اكثر منه على الثمر ، أوتريدون حجة أبين من هذه ، فقلت : يا ابا سيف بهذا او شبهه يعرف فضل الشيخ على الشاب ! »

واشتدّ فيه هذا الميل الى الاستهزاء بالحمقى كل حياته فمن استهزائه بامثال هذه الطبقة من الناس قوله في اثناء كلام له على المكي[2] :

« وكان المكي طبباً طيب الحجج ظريف الحيل عجيب العلل وكان يدعي كل شيء على غاية الإحكام ولم يحكم شيئاً قط من الجليل ولا من الدقيق واذ قد جرى ذكره فسأحدثك ببعض أحاديثه وأخبرك عن بعض علله لتُلهى بها ساعة ثم نعود الى ذكر الذبان :

ادّعى هذا المكي البصر بالبراذين ونظر الى برذون واقف قدالقى صاحبه فيه اللجام ، فرأى فاس اللجام واين بلغ منه فقال لي : العجب كيف لا يذرّعه التيء وانا لوادخلت إصبعي في حلقي لما بقي في جوفي شيء الاّ خرج ، قلت : الآن علمت انك تبصر ، ثم مكث

---

(١) الحيوان الجزء الثالث (ص ١١٢) .

(٢) » » » (ص ١٠١) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

البرذون ساعة يلوك لجامه فأقبل عليّ فقال لي : كيف لا يبرُد اسنانه ، قلت انما يكون عند البصراء مثلك ، ثم رأى البرذون كلما لاك اللجام والحديدة سال لعابه على الارض فقال لي : ان البرذون افسد الخلق عقلاً ولولا ذلك لكان ذهنه قد صفي ، قلت له : قد كنت اشك في بصرك بالدواب فأما بعد هذا فلست اشك فيه ٠ —

وقلت له مرةً ونحن في طريق بغداد : مابال الفرسخ يكون في هذا الطريق فرسخين والفرسخ يكون اقلّ من مقدار نصف فرسخ ففكر طويلاً ثم قال : كان كسرى يقطع للناس الفراسخ فاذا صانع صاحب القطيعة زادوه واذا لم يصانع نقصوه ٠ —

وقلت له مرةً : علمت ان الشاري حدثني ان المخلوع بعث الى المأمون بجراب فيه سمسم كأنه يخبره ان عنده من الجند بعدد ذلك ، وان المأمون بعث اليه بديك اعور يريد ان ظاهر بن الحسين يقتل هؤلاء كلهم كما يلقُط الديك الحب ، قال : فان هذا الحديث انا ولدته ، ولكن انظر كيف سار في الآفاق ، واحاديثه واعاجيبه كثيرة ٠ »

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تهكم الجاحظ

- ٢ -

ظهر ميله الى الاستهزاء من غضاضة عوده واستحكم فيه هذا الميل بعد ان تهيأت له اسباب التهكم بجذافيرها ، فقد خلق مطبوعاً على هذا التهكم ، وقوت فيه ثقافته هذا الطبع ، وعاش في عصر احتاج فيه الى السخرية ، عاش في عصر ترك فيه الجمهور الاكبر والسواد الاعظم التوقف عند الشبهة ، والثبت عند الحكومة وعزل الحق فيه جانباً ومات ذكر الحلال والحرام ورفض ذكر القبيح والحسن . والخلاصة عاش في عصر استفاضت فيه الزندقة وشاعت فيه طائفة من الخرافات في طبقات العامة وبعض العلماء والمؤلفين فلم يجد الجاحظ بداً له من التنبيه على هذه الخرافات ، وعلى هذا الضلال وهو الرجل الذي وقف نفسه على نصرة الحق عمره كله ، وخاصة فقد امكن القول في عصره وصلح الدهر ، فلم يبق للجاحظ الا إظهار ما عنده والقيام بما يلزمه من نصرة للحق وهجمة على الباطل ولاسيما بعد ان كثرت خصومه وحساده ومشمتوه فلم يجد له امضى سلاحاً من التهكم ، هذا التهكم الذي قال فيه فولتير : اذا أردت ان تقتل خصمك فاجعله هزأة —

فاجتهد الجاحظ في جعل خصمه هزأة كل حياته ولئن عابه ابن قتيبة باستهزائه من الحديث استهزاء لايخفى على اهل العلم ذكره فلم يستهزئ الجاحظ بالصحيح من الاحاديث وانما استهزأ ببعض تأويلات وتفسيرات لا يقرها عقل عالم اشتغل بالتحقيق والتمحيص قرناً متكاملاً —

فلنجتهد في بيان بعض مواطن من هذا الاستهزاء —

للجاحظ أسلوب في التهكم على بعض اهل التفسير والتأويل بسيط جداً وقد بلغ من بساطته انه لا يكاد يظهر عليه اثر الاستهزاء والسخرية فهو يدس هذا التهكم دساً دون ان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يظهر على بيانه فبدلاً من ان يتعرض لهذه الطائفة من العلماء تعرضاً ويجادلهم جدالاً يكتفي في اكثر الأوقات بالدلالة على آرائهم والاشارة الى مذاهبهم ، ولكن هذه الاشارة مهما كانت خفية ومهما كانت رمزاً لا تخلو من روح التهكم فبينا الجاحظ مثلاً يمضي قوله في باب من ابواب العلم كباب ما يعتري الانسان بعد الخصاء وكيف كان قبل الخصاء وبينا يفيض في هذا الباب في أمور علمية اذ يعرض له رأي من الآراء التي لا يؤيدها العلم فيكتفي بالتنبيه عليها كقوله مثلاً وقد ضمتموه [1] :

« وزعم بعض المفسرين واصحاب الاخبار ان اهل سفينة نوح كانوا تأذوا بالفار فعطس الأسد عطسة فرمى من منخريه بزوج سنانير فلذلك السنور أشبه شيء بالاسد وسلح الفيل زوج خنازير فلذلك الخنزير أشبه شيء بالفيل .

ثم يردف هذا القول كلامه الآتي :

قال كيسان : فينبغي ان يكون ذلك السنور آدم السنانير وتلك السنورة حوّاءها وضحك القوم . — »

ان مجرّد ذكره لأشباه هذه الآراء في اثناء بحثه عن أمور مبنية على العلم والعقل كاف للدلالة على سخريته باصحابها فكأنه يغمز بعينيه غمزاً فهو لا يتولى الطعن على هذه الآراء والمذاهب وانما يكفي نفسه مؤنة هذا الطعن بتركه للقاريء حق الحكم على مثل هذه الآراء وهذا الاسلوب على نزاهته الظاهرة لا يخلو من مهارة وحذق ولم لا اقول لا يخلو من خبث ، فان الجاحظ لا يتولى فيه التشنيع والتهجين وانما يجرّ القاريء جرّاً الى هذا التشنيع والى هذا التهجين ثم ينسحب انسحاباً فيخرج بعد ايقاظه الفتنة كابن اللبون لا ظهراً ولا ضرعاً . —

ونظائر هذا التهكم مستفيضة في كتاباته ومن هذا القبيل قوله : مثلاً [2] :

ويزعم زرادشت وهو مذهب المجوس ان الفارة من خلق الله ، وان السنور من خلق الشيطان وهو ابليس وهرمن ، فاذا قيل له : كيف نقول ذلك ، والفأرة مفسدة تجذب فتيلة المصباح فتحرق بذلك البيت والقبائل الكثيرة والمدن العظام والارباض الواسعة

(١) الحيوان الجزء الاول (ص٦٧) .

(٢) » » الرابع (ص٩٩) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بما فيها من النـاس والحيوان والاموال وتعترض دفاتر العلم وكتب الله ودقائق الحساب والصكاك والشروط وتعترض الثياب وربما طلبت القطن لتأكل بزره فتدع اللحاف عريانا وتعترض الجُرُب واوكية الاسقية والازقاق والقِرَب فتخرج جميع مافيها وتقع في الآنية وفي البئر فتموت فيه ، وتحوج الناس الى مؤن عظام وربما عضت رجل النائم وربما قتلت الانسان بعضتها ، والفار بخراسان ربما قطعت أذن الرجل وجرذان انطاكية تَفْجُرُ عنها السنانير ، وقد جلا عنها قوم وكرهها آخرون لمكان جرذانها وهي التي فجّرت المُسَنَّاة حتى كان ذلك سبب الخُسر بارض سبأ وهي المضروب بها المثل وسيل العرِم مما تؤرخ بزمانه العرب ، والعرم المسَنَّاة ، وانما كان جرذاً وتقتل النُخَل والفسيل وتخرب الضيعة وتأتي على أفرحة الركاب والخضر وغير ذلك من الاموال والناس ربما اجتلبوا السنانير ليدفعوا بها بوائق الفار ، فكيف صار خلق الضار المفسد من الله ، وخلق النافع من خلق الشيطان ، والسنور يعدي به على كل شيء خلقه الشيطان من الحيات والعقارب والجعلان وبنات وردان والفأرة لا تقع لها وموءنها عظيمة . قال : لان السنور لو بال في البحر لقتل عشرة آلاف سمكة ، فهل سمعت بحجة قط او بحيلة او بأضحوكة او بكلام ظهر على تلقيح هرة يبلغ مؤن هذا الاعتلال ، فالحمد لله الذي كان هذا مقدار عقولهم واختيارهم .. »

على انه هذه المرة لم يكتم استهزاءه فقد دلّ عليـه بقوله : فهل سمعت قط بحجة او بحيلة .... بيد انه وان أفصح عن سخريته بهذه العبارة الاخيرة كان في مندوحة عنها فان تدوينه لمثل هذه الاقوال كاف للإعراب عن هذا التهكم الكامن في ذهنه . —

ومثل هذا الاستهزاء كثير في كلامه لا أجد بي حاجة الى الاستزادة منه وانما ضربت لكم مثلاً حتى تستأنسوا به . —

وقد يخرج في بعض الاحايين في ردّه على من يعيب كتبه عن البساطة التي لمحت اليها فيرهف قلمه ويحشد طبعه ، فبدلاً من ان يلجأ الى رباطة جأش المتهكمين والى هدوئهم وسكونهم يثور ثورته فيقول لهذا العائب الذي عابه باكثر كتبه[1] :

« بهرك ماسمعتَ ، وملأ صدرك الذي قرأت وأبعلك وأبطرك فلم تتجه للحجة وهي

(١) كتاب الحيوان الجزء الاول (ص٦) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لا معوضة ، ولم تعرف المقـاتل[1] وهي لا بادية ، ولم تعرف باب المخرج اذ جهلت باب المدخل ، ولم تعرف المصادر اذ جهلت الموارد ، رأيتَ ان سببَ الاولياء أشفى لدائك وأبلغ في شفاء سقمك ، ورأيت ان ارسال اللسان أحضر لذة وأبعد من النصب ومن إطالة الفكرة ومن الاختلاف الى ارباب هـذه الصناعة ولو كنت فطنت لعجزك وصلتَ نقصك بتمام غيرك واستكفيت من هو موقوف على كفاية مثلك وحبيس على تقويم اشباهك ، كان ذلك أزين في العاجل ، وأحق بالمثوبة في الآجل ، وكنت ان اخطأتك الغنيمة لم تخطئك السلامة ، وقد سلم عليك المخالف بقدر ما ابتلي منك الموافق ، وعلى انه لم ينل منك الاّ بقدر ما الزمته من مؤنة تثقيفك والتشاغل بتقويمك وهل كنت في ذلك الاّ كما قال العربي : هل يضرّ السحاب نبح الكلاب والاّ كما قال الشاعر :

هل يضر البحر أمسى زاخراً أن رمى فيه غلام بحجر

وهل حالنا في ذلك الاّ كما قال الشاعر :

ما ضرّ تغلب وائل أهجوتها ام بلت حيث تناطح البحران

وكما قال حسان بن ثابت :

ما أبالي أنبّ بالحزن تيس ام لحاني بظهر غيب لئيم

وما اشك انك قد جعلت طول إعراضنا عنك مطية لك ، ووجهت حلمنا عنك الى الخوف منك ، وقد قال زفر بن الحارث لبعض من لم ير حق الصفح فجعل العفو سبباً الى سوء القول

فان عدت والله الذي فوق عرشه منحتك مصقول الغرارين ازرقا

فان من الجهل ان تضرب الطلى وان تلمس العريض حتى يغرقا وقال الاول

وضغائن دارٍ بتها بضغائن حتى شفيت و بالحقود حقودا

وقال الآخر

وما تعي عنك قوماً انت خائفهم كمثل رقمك جهالاً بجهال

فاقعس اذا حربوا واحرب اذا قعسوا ووازن الشر مثقالاً بمثقال

الى آخر هذا الكلام ....

(١) في الاصل : المقابل .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

غير ان هذه الاساليب كلها في التهكم قد لا تكون شيئاً قياساً الى تهكمه في كتابه التربيع والتدبير ، فهذا الكتاب انما هو المثل الأعلى في التهكم والحجة القاطعة فقد كان استهزاؤه فيه على أساليب فنية ، يخرج في السخرية بالرجل من باب الى باب ومن شكل الى شكل حتى يمزقه تمزيقاً فيصغره في عيون الناس اولاً ثم يصغر هذا الرجل في نفسه فيتمنى لو ان الارض خسفت به خوفاً من ان تقع عليه عين ، وهل يبلغ الإفحاش في القول من رجل ما يبلغه منه تصويره في صور شتى كل صورة منها معرض تعرض علينا فيه ناحية من نواحيه ، وفي كل معرض من هذه المعارض صورة هزلية .

فمرة يعرض علينا طائفة من آداب نفسه وصفات عقله في معرض هزلي فيقول (١)

« وانا أبقاك الله اعشق انصافك كما تُعشق المرأة الحسناء واتعلم خضوعك للحق كما اتعلم الفقه في الدين ولربما ظننت ان جورك انصاف قوم آخرين وانك يقنعك سماع رجال منصفين وما اظنك صرت الى معارضة الحجة بالشبهة ومقابلة الاختيار بالاضطرار واليقين بالشك واليقظة بالحلم الاّ بالذي خصصت به من إيثار الحق وألهمتَه من فضيلة الانصاف حتى صرت احوج ما تكون الى الانكار أذعن ما تكون بالاقرار واشد ما تكون الى الحيلة فقراً اشد ما تكون للحجة طلباً . — »

ثم لا يكتفي بهذا المعرض حتى يضيف اليه هذه الصورة (٢)

« غير ان ذلك بطرف ساكن وصوت خاضع وقلب جامع وجأش رابط ونية جسور وارادة تامة مع غفلة كريم وفطنة عليم ان انقطع خصمك تغافلت وان خرق توقفت غير منخوب ولا متشعب ولا مدخول ولا مشترك ولا ناقص النفس ولا واهن العزم ولا حسود ولا منافس ولا متغالب ولا متعاقب يفل الحد ، و يصيب المفصل و يقرب البعيد و يظهر الخفي ويميز الملتبس ويلخص المشكل و يعطي المعنى حقه من اللفظ كما يعطي اللفظ حظه من المعنى و يحب المعنى اذا كان حياً يلوح وظاهراً يصيح و يبغضه مستهلكاً بالتعقيد ومستوراً بالتقريب . — »

---

(١) رسائل الجاحظ على هامش المبرد (الجزء الاول ص ٤٦) .

(٢) » » » » » ص ٤٧

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

واذا فرغ من هذا المعرض عرض علينا محاسن علمه فيقول [١]

« فخبرني ماجرى بينك وبين هرمس في طبيعة الفلك ، وعن سماعك من افلاطون ومادار بينك وبين ارسطاطاليس واي نوع اعتقدت واي شيء اخترت فقد ابت نفسي غيرك وابت ان تتشفى الاّ بخبرك ولولاني كلف برواية الاوقاويل ومغرم بمعرفة الاختلاف واني استجيز مسألتك عن كل شيء وابتذالك في كل امر لما سمعت من احد سواك وما انقطعت الى احد غيرك ٠ — »

واذا انتهى من محاسن علمه انتقل الى محاسن اخلاقه فيقول [٢]

« واعلم اني واياك متى تحاكمنا الى كرمك قضى لي عليك ومتى ارتفعنا الى عدلك حسن العفو عني عندك وفصل مابيننا وبينك وفرق مابين اقدارنا وقدرك انا نسيء وتغفر ونذنب وتستر ونعوج وتقوّم ونجهل وتعلم وان عليك الانعام وعلينا الشكر ٠ — »

واذا فرغ من الاستهزاء بآداب نفسه وصفات عقله ومحاسن علمه ومكارم اخلاقه لم يبق له الا الاستهزاء بجماله الفاتن فيعرض علينا هذا الجمال فيقول [٣]

وهل تقع الأبصار الاّ عليك ، وهل تصرف الاشارة الاّ اليك ، واي امرك ليس بغاية ، واي شيء منك ليس في النهاية ، وهل فيك شيء يفوق شيئاً او يفوقه شيء او يقال لو لم يكن كذا لكان او لو كان كذا لكان أتم واين الحسن الخالص والجمال الفائق والملح المحض والحلاوة التي لا تستحيل والتمام الذي لا يحل الاّ فيك اوعندك او لك او معك لا بل اين الحسن المصمت والجمال المفرد والقدّ العجيب والملح المنثور والفضل المشهور الاّ لك وفيك وهل على ظهرها جميل حسيب وعالم اديب الاّ وظلك اكبر من شخصه وظنك اكثر من علمه واسمك افضل من معناه ، وحلمك اثبت من نجواه ٠ — »

وقد تفنن في هذا الاستهزاء التفنن كله فلا تغني هذه الانماط التي ذكرتها عن الرجوع الى اصل الكتاب ٠

---

(١) رسائل الجاحظ على هامش المبرد (الجزء الاول ص٥٧) ٠

(٢) » » » » » » ص ٦٢

(٣) » » » » » » ص ٦٨

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هذا آخر ما خطر على البال من تهكم رجل هزأ باشياء كثيرة في هذا العالم ، هزأ بالخرافات والأباطيل وبالحمق وربما كان خروجه من ديوان الخليفة هزءًا بالعظمة نفسها ، بل ربما سخر بشيء اعظم من العظمة فاذا كان الجاحظ في كتابه المحاسن والأضداد الذي وصف فيه الشيء وضده على السن مختلفة يرمي الى حقيقة فلسفية فيصوّر لنا طبقة من الناس يستحسنون طائفة من الامور ثم يصوّر لنا طبقة غيرهم يستقبحون ما استحسن غيرهم اذا كان غرض الجاحظ من هذا الكتاب تقرير هذه الحقيقة فكأنه يريد ان يقول لنا لا حقيقة مطلقة في الدنيا واذا كان هذا قوله فكأنما الجاحظ هزأ بالحياة كلها . —

دمشق : في ٥ كانون الاول سنة ١٩٣١

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net